(٤) الجانب المظلم للقمر الأمريكى:

هاورد زن

هاورد زن مؤرخ أمريكى وناشط اجتماعى وكاتب مسرحى. بدأ حياته العملية من قلب الطبقة الشعبية الكادحة التى أهملها المجتمع الأمريكى فظلت رهينة قاعه، لكنه كرس لها حياته العلمية والفكرية والثقافية بحيث نجح بأن يطفو بقضاياها ومحنها ومآسيها على سطح المجتمع، من خلال دراساته وكتاباته وكتبه الموسوعية التى يأتى فى مقدمتها كتاب «تاريخ شعب الولايات المتحدة: من عام ١٤٩٢ إلى الآن» الصادر عام ٢٠٠٥. وكان من الطبيعى أن يكون كاتبًا ومفكرًا ثوريًا ويساريًا، كرس كتاباته لتظهر وتنير الجانب المظلم من القمر الأمريكى، الذى أصاب الكثيرين من البشر فى أرجاء المعمورة بهوس لم يشف منه معظمهم وكانت المواقف والصراعات والمآسى التى رصدها هاورد زن وحللها وألقى عليها أضواء ساطعة وفاحصة بمثابة مشاهد متتالية لكوابيس، لا تظل جاثمة على كاهل الطبقات المطحونة.

بدأ هاورد زن حياته العملية على سفن الشحن لمدة ثلاثة أعوام أكسبته خبرة عميقة وواسعة بالطبقة العمالية. ثم اشترك فى سلاح الطيران الأمريكى أثناء الحرب العالمية الثانية فاكتسب خبرة مثيرة وغنية من طراز آخر. وبعد الحرب التحق بالجامعة؛ ليحصل فى نهاية المطاف على درجة الدكتوراه من جامعة كولومبيا عام ١٩٥٨. وقام بالتدريس فى كلية سبيلمان فى جامعة أطلانطا بولاية جورجيا حتى عام ١٩٦٣، وفى جامعة بوسطن حتى عام ١٩٨٨. كما عمل استاذًا زائرًا فى جامعتى باريس وبولونيا، وحصل على جائزة توماس ميرتون وجائزة يوجين ديبس وجائزة أبتون سنكلير وجائزة لانان الأدبية. ومن كتبه «حراس النظام فى الكونجرس» عام ١٩٥٩، و«أمريكا ما بعد الحرب» عام ١٩٦٤، و«فيتنام: منطق الإنسحاب» عام ١٩٦٧.

ويوضح زن أن تاريخ الشعوب لابد أن يوازن تاريخ الحكومات أو السلطات التى احتكرت التاريخ لنفسها عبر العصور، وقد أدى هذا الاحتكار إلى أزمة تدريس التاريخ للأجيال المتتالية فى مختلف الشعوب. وعبارة «تاريخ شعب» التى كانت عنوان كتابه عن الولايات المتحدة تعنى مهمة علمية وفكرية أضخم وأثقل مما لا يستطيع شخص واحد أن يقوم به، كما أن هذا النوع من التاريخ الشعبى وليس الرسمى المسجل، والمعتمد يعتبر الأصعب فى الإمساك به وتقنينه علميًا. ورغم كل الحدود والقيود وربما المتاهات الجانبية والطرق المسدودة التى قد تعوق دارس هذا النوع من

التاريخ، فإن زن لا يجد مصطلحًا أفضل من مصطلح التاريخ الشعبى أوتاريخ شعب أو شعوب؛ لأنه لا يركز على الحكومات والسلطات؛ بل إنه لا يحترمها لأنها تعمل من أجل مصالحها وأهدافها أكثر من اهتمامها بالشعوب التى أوصلتها إلى هذه القمة، وفى الوقت نفسه يجل هذا التاريخ كثيرًا من الحركات التى قامت بها الشعوب لمقاومة المحاولات الرسمية لإهدار كيانها.

ومن الطبيعى أن يكون التاريخ الشعبى متحيزًا بطبيعته؛ لأن الشعب لا يمثل مجرد موضوع للدراسة والتحليل وإنما هو قضيته التى يكافح من أجلها، وقاعدته التى ينطلق منها، واتجاهه المحدد الذى لا يحيد عنه. وهذا تحد كبير لأمثال هاورد زن؛ لأن الجبل المصنوع من كتب التاريخ الذى يقف تحته أساتذة التاريخ ودارسوه التقليديون يتكئ بكل ثقله على الاتجاه الرسمى الذى يجل الحكومات والقادة السياسيين إجلالاً كبيرًا بالقدر نفسه الذى لا يحترم به حركات الشعب ومقاومته. ولذلك يرى زن أن دراسة التاريخ الأمريكى فى حاجة إلى قوة ثورية مضادة، تستطيع أن تتجنب الوقوع فى براثن الإذعان والتسليم لمنطلقات التاريخ الرسمى، الذى يصل به تزييف الحقائق والوقائع والمواقف والشخصيات فى أحيان كثيرة إلى درجة تصوير القادة والساسة كما لو كانوا رسل العناية الإلهية، الذين جاءوا فى مرحلة أو نقطة تحول تاريخية لإنقاذ الشعب من الهاوية التى فتحت فاها لابتلاعه، فى حين أنهم قد يكونون فى مقدمة الأسباب التى أدت إلى الهاوية.

ويربط التاريخ الأمريكى بين قدرة المواطن العادى على اتخاذ الفعل، ولكن بشرط أن تتحول هذه القدرة فى وقت الأزمات أو المحن إلى طاقة غير عادية، تجعل من القائد الجديد منقذًا أو مخلصًا من هذه الأزمات والمحن؛ أى إن الشرط الأول الذى يجب أن يتوافر فى القائد أن يكون رجلاً غيرعادى، ولذلك فإن كل الدراسات التاريخية دارت حول الآباء المؤسسين والرؤساء، وركزت على مراحل التحول المصيرى بحيث رسخت فكرة تحتم ضرورة أن يتطلع الشعب الأمريكى إلى شخص ما يأتى لإنقاذه. تمثل هذا الشخص فى الآباء المؤسسين فى أثناء فترة الثورة على الاحتلال البريطانى، وفى لنكولن فى أزمة الحرب الأهلية التى ترتبت على إلغاء الرق، وغيرهم من الرؤساء الذين ارتبطت أسماؤهم بقضايا كانت مثار اهتمام رسمى وربما شعبى مثل أزمة ڤتنام وفضيحة ووترجيت. أما فيما عدا هذه الأزمات فإن الأمور تعود إلى سيرتها الأولى ويصبح كل شىء على ما يرام. ويكفى الشعب الأمريكى أن يعود بعد كل أزمة إلى هذه الحالة الطبيعية، فإن المواطن يتعلم من كتب التاريخ الرسمى أن أسمى صور المواطنة تتمثل فى قيامه بالاختيار من بين المنقذين المخلصين، عن طريق الذهاب إلى

صندوق الانتخابات كل أربع سنوات للمفاضلة بين اثنين من الذكور البيض الأنجلو ساكسونيين الأثرياء.. يتمتع كل منهما بشخصية مسالمة وتحمل آراء تقليدية. وإن كان باراك أوباما قد كسر هذه القاعدة وأصبح أول رئيس أمريكى غير أبيض فى انتخابات ٢٠٠٨، التى كانت بكل المقاييس غفلة من الزمن الأمريكى، لدرجة أن بعض المؤرخين الرسميين اعتبرها حالة غير طبيعية قد لاتتكرر فى المستقبل المنظور على الأقل؛ لأن البيض الأنجلو ساكسون لابد أن يكونوا قد استوعبوا الدرس جيدًا. ويرى زن أن فى مقدمة الدروس التى اعتادها الأمريكيون تتمثل فى فكرة المنقذ، وبرغم أن كتابه «تاريخ شعب الولايات المتحدة» كان قد صدرقبل ثلاثة سنوات من دخول أوباما البيت الأبيض، حين لم يكن أحد يعرف مجرد اسمه، إلا أن تحليل زن لقواعد اللعبة السياسية الأمريكية ينطبق على أن أوباما هو استثناء من هذه القواعد.. يقول زن:

«لم تقتصر فكرة المنقذ على مجال السياسة فحسب، بل ترسخت فى بناء الثقافة كله. وقد تعلمنا أن ننظر إلى النجوم والقادة والخبراء فى كل مجال متنازلين عن قوتنا، ومقللين من قدرتنا ومتناسين أنفسنا، غير أن الأمريكيين، من وقت لآخر، يرفضون هذه الفكرة ويثورون ضدها. لكن كالعادة تم احتواء كل حركات التمرد التى قامت حتى الآن، فالنظام الأمريكى من أكثر النظم فى تاريخ العالم قدرة على التحكم. فهى دولة غنية بمواردها الطبيعية ومهارتها وقوتها العاملة، وتستطيع أن توزع ثروة قليلة على مواطنيها بحيث ترضى غالبيتهم، ويقتصرالسخط على أقلية مزعجة. إنها دولة غاية فى القوة والاتساع، وقادرة على إرضاء كثير من مواطنيها، وتستطيع أن تتحمل منح الحرية فى السخط والغضب للقلة غير الراضية.

«وليس هناك نظام كهذا النظام يستطيع أن يفرض سيطرته على البلاد، ويوفر كل هذه الفرص للعمل، وهذه المرونة فى التنقل من وظيفة لأخرى، ويتيح المكافآت لأصحاب الحظوة وأيضًا جوائز اليانصيب! وظروف العمل والأسرة والمدرسة ووسائل الإعلام. ويستطيع أيضًا أن يمتص المعارضة عن طريق بعض الإصلاحات الخادعة وأن يعزل الأشخاص بعضهم عن بعض، ثم يقوم بخلق شعور وطنى قوى. والجديربالذكر أن نسبة واحد فى المائة فقط من الشعب يملك ثلث الثروة، وبقية الثروة موزعة على التسعة والتسعين بالمائة الباقية بطريقة تجعلهم فى صراع دائم، مثل الصراع بين أصحاب الأملاك الصغيرة ضد من لا يملكون، والسود ضد البيض، والسكان الأصليين ضد الوافدين، والمثقفين والعمال المهرة ضد الأميين. هذه الجماعات تبغض بعضها البعض لدرجة التورط فى حروب متنوعة تتراوح بين الدهاء

والخبث، وبين الفتات المتساقط من موائد الدولة شديدة الثراء والمتخمة بأطايب وملذات الحياة».

ويشرح هاورد زن استراتيجيته الفكرية التى يمارسها تحت وطأة هذه المعركة المرة اليائسة للحصول على الموارد النادرة والكمالية، التى تتحكم فيها الصفوة الغنية، موضحًا أن له الحرية فى أن يجمع نسبة التسعة والتسعين بالمائة هذه تحت مسمى «الشعب». والتاريخ الذى يحرص على شرحه وتفسير خباياه، يعبر عن مصالحهم المشتركة والمهملة. وكتاباته تسعى للتركيز على أشكال المشاركة التى تتم بينهم لإعلان العداء العميق مع مصالح أعضاء طبقة الواحد بالمائة المتميزين. وهو العداء الذى حاولت حكومات الولايات المتحدة والصفوة الغنية المتحالفة معها، من عهد الآباء المؤسسين إلى الآن، زمن سطوة المجمع الصناعى العسكرى، منع حدوثه بكل الوسائل الممكنة.

كان الرئيس الرابع للولايات المتحدة جيمس ماديسون (١٧٥١ – ١٨٣٦) يخشى الشقاق بين الأغلبية، وكان يأمل أن يستطيع الدستور الجديد التحكم فى ذلك، وقام مع رفاقه بوضع عبارات فى مقدمة الدستور من قبيل «نحن الشعب ...»، متظاهرًا بأن الحكومة الجديدة تقف إلى جانب الجميع ولا تفرق بين أبناء الشعب. وكان يأمل أيضًا أن تترسخ هذه الخرافة بحيث يقبلها الجميع بصفتها حقيقة لا تقبل الجدل، وأن تضمن تحقيق ما أسماه «الهدوء الداخلى». ولكن التوتر ظل مستمرًا لأجيال متعاقبة رغم كل الرموز اللفظية والمادية المتشابكة، التى حرص عليها القادة والزعماء مثل العلم والوطنية والديمقراطية والدفاع الوطنى والمصالح الوطنية والأمن الوطنى. ويقدم هاورد زن صورة أمريكية قحة تعبر بقوة عما يجرى:

«كانت الشعارات قد حفرت فى أرض ثقافة الشعب الأمريكى مثل دائرة من العربات المغطاة فى السهول الغربية، وفى داخل الدائرة هناك الأمريكى الذى يتمتع بالامتيازات التى تمكنه من أن يطلق النار على الأعداء فى الخارج. أما الهنود الحمر والسود والأجانب فغير مسموح لهم بالتواجد داخل تلك الدائرة، فى حين يراقب مديرو الحافلة من بعيد، ومن مكان آمن، كل تطورات الموقف. وعند انتهاء المعركة وامتلاء الساحة بالقتلى من كلا الجانبين يسارعون بالاستيلاء على الأرض والترتيب لحملة أخرى فى منطقة جديدة! غير أن هذا النظام لم يعمل بكفاءة كاملة نظرًا للتناقض الصارخ بين القيم الثورية والدستورية من ناحية، وبين الصراعات العنصرية من ناحية أخرى؛ فقد حاولت الثورة ومعها الدستور استعادة الهدوء من خلال احتواء الغضب

الطبقى منذ الحقبة الاستعمارية، فى حين استعبد البيض السود وأبادوا أوشردوا الهنود الحمر، وبالتالى لم يمنح النظام الفرصة للنجاح الكامل».

وتوالت مظاهر الفشل والصراع منذ انتهاء الحرب الأهلية، إذ برزت تحالفات كثيرة بين الصفوة الأرستقراطية الثرية من الشمال والجنوب، ولكنها تحالفات ظلت تحت وطأة صراعات طبقية فى الجنوب بين البيض والسود، وخلافات أخرى فى الشمال بين العمال الأصليين والمهاجرين وكذلك المزارعين المبعثرين فى أرجاء البلاد الشاسعة. وكان الاتحاد الذى تم بين النظام الرأسمالى والحكومة هو القاعدة الراسخة، التى نهض عليها نظام الحكم حتى الوقت الراهن، لكنه فشل فى أن يمنع ظهور حركات تمرد كثيرة من خلال العمال، وأيضًا حركات مقاومة كثيرة من بين المزارعين تواصلت حتى مطلع القرن العشرين؛ حتى تمت مساع كثيرة لتهدئة السود والهنود، ودخلت فى الساحة لعبة الانتخابات والانغماس فى حروب خارج الحدود لامتصاص ثورات البيض وتهدئتها. ولكن كل هذا لم يكن كافيًا لمنع الانتشار السريع للحركات الاشتراكية وحركات الكفاح العمالية إبان الحرب العالمية الأولى. ومع ذلك لم تستطع الحروب أو الازدهار الجزئى فى العشرينيات، ولا التدمير الكبير للحركات الاشتراكية، منع حركات ثورية جديدة، وعودة ظهور الحركات العمالية فى الثلاثينيات نتيجة للأزمة الاقتصادية التى بدأت فى أكتوبر ١٩٢٩ .

وعلى عكس الأفكار السعيدة التى تراود المهووسين بالحلم الأمريكى، الذى يعد الجميع بجنة وارفة الظلال من الاستقرار والسكينة والسعادة، ظل التاريخ الأمريكى سلسلة من التقلبات والاضطرابات والقلاقل والمخاوف. فمثلاً، كانت الحرب العالمية الثانية قد أوجدت نوعًا جديدًا من الوحدة، تبعتها محاولة ناجحة – فى ظل أجوء الحرب الباردة – استطاعت تهدئة الإحساس القوى بالثورة على مدى سنوات الحرب. ولكن على عكس المتوقع، ظهرت في مطلع التسعينيات، مجموعة من الناس يشعرون بالاضطهاد وبأنهم خارج دائرة الضوء مثل السود والنساء والسجناء وأهل البلاد الأصليين. وكانت هذه كلها حركات مناهضة جديدة تهدد بالانتشار على نطاق واسع فى مجتمع أصابته خيبة أمل قاسية نتيجة لحرب فيتنام وفضيحة ووترجيت فى أعقاب هذه الحرب مباشرة.

ولعل من أوضح سمات النظام الأمريكى، الإسراع لتغطية أو استيعاب أية أزمة أو محنة لتجاوزها والتخلص من آثارها، سواء باستغلال ظروف متاحة بالفعل أو اختراع ظروف لم تكن موجودة أصلاً. ومن هنا، كانت استقالة الرئيس نيكسون، وترتيبات الاحتفال بالذكرى المئوية الثانية للاستقلال، والسمعة الطيبة التى تمتع بها

الرئيس جيرالد فورد، الذى كان ارتباطه بنيكسون سببًا فى فشله فى الانتخابات أمام جيمى كارتر مرشح الحزب الديمقراطى. كل هذه التطورات كانت تهدف إلى استعادة النظام لحالته الأولى لإشاعة الإحساس بالاستقرار والاستمرارية. لكن استعادة النظام للحالة القديمة لم يكن حلاً بسبب الشعور بعدم الوضوح، وفقدان الشعب للثقة فيما يدور على القمة، وعزلة الإدارة الأمريكية التى اشتدت فى عهدى ريجان وبوش الأب. كما أن انتخاب بيل كلينتون فى عام ١٩٩٢، انطوى على وعد غامض بالتغيير كان أقل بكثير من التوقعات.

ويتوغل زن فى تفكيك البنية السياسية للنظام الأمريكى، فيؤكد أن الهدف الأول لهذا النظام أن يبدو أمام الجميع أنه نظام للشعب برمته، وليس لقطاع أو طبقة أو فئة معينة. ولذلك كانت اللعبة المفضلة لدى الحكومة فى فترات القلق والانزعاج المتواصل، أن تسارع الدولة للجمع بين السياسيين والمسئولين فى محاولة مستميتة للحفاظ عل الوحدة الوطنية التاريخية، من خلال تمثيل الحكومة لكل الشعب، وتأكيد أن العدو الحقيقى كامن خارج البلاد وليس داخلها، والإدعاء المتكرر بأن الكوارث الاقتصادية والحروب عبارة عن أخطاء تعيسة أو حوادث مأسوية، وفى الإمكان إصلاحها الذى يتم بين الأفراد الذين تسببوا فيها. ومن المهم أيضًا تأكيد أن هذه الوحدة المصطنعة بين أصحاب الامتيازات الكبيرة وأصحاب الامتيازات الضئيلة تعتبر الوحدة الوحيدة الموجودة. أما نسبة التسعة والتسعين بالمائة المتبقية، فتظل منقسمة على ذاتها بطريقة لا نهائية، ومنقلبة على بعضها البعض من أجل التنفيس عن غضبها! وهذا الدهاء السياسى المتوارث عن الآباء المؤسسين لا يتوقف عند حدود المهارة التقليدية، بل هو منظومة متناغمة ومتكاملة من مهارات متداخلة ومتشابكة قد يصعب حصرها، لأن تفاعلاتها تختلف باختلاف الزمان والمكان. يقول هاورد زن:

«يالها من مهارة أن تفرض الضرائب على الطبقة المتوسطة من أجل التخفيف عن الطبقة الفقيرة! يالها من مهارة أن تقوم ببعض الإصلاحات الخادعة بحيث لا تؤثر على ثروات الأغنياء! يا لها من مهارة أن يتم تدبير المليارات من الدولارات لصناعة حاملات الطائرات، ولا يتم تدبير ما يكفى لتوفيرالألبان الضرورية للأطفال! ويالها من مهارة كبيرة أن تتم تلبية متطلبات السود والنساء بالمساواة بإعطائهم نسبة ضئيلة من المزايا ، ووضعهم فى منافسة مع كل فرد آخر للحصول على فرص عمل تعتبر شحيحة بسبب النظام المعتوه! ويالها من مهارة كبيرة أن يتم تحويل الأغلبية التى تشعر بالخوف والغضب لتصب جام غضبها على المنحرفين، الذين هم فى الواقع نتاج غياب العدالة الاقتصادية، ولا تتم محاولة حل المشكلة. كما يتحول الانتباه عن السرقات الكبيرة للموارد القومية، التى تتم فى ظل القانون بواسطة أشخاص فى مراكز قيادية»!

لكن هاورد زن يضع يده على مفارقة قد تتوه عن أذهان الكثيرين، الذين يظنون أن استهانة الحكومة بعقل الشعب يمكن أن تستمر إلى مالا نهاية، ذلك أنه مع كل هذا التحكم والإغراءات والامتيازات والخديعة والتضليل على مدى تاريخ البلاد، لم تستطع الدولة أن تحمى نفسها من الثورات، ففى كل مرة تشعر أنها حققت النجاح المؤدى إلى الاستقرار السياسى والاقتصادى والاجتماعى والثقافى، تصدر الثورات عن الأشخاص الذين ظنت أنها استطاعت أن تغويهم وتخضعهم. فمثلاً، حاول القضاء بقراراته وكذلك الكونجرس، تملق السود، لكن هذا لم ينطل عليهم وقاموا بثورات كثيرة لأن العبرة فى النهاية بالنتيجة العملية. وكذلك تم التودد للنساء ثم إهمالهن بعد ذلك، فلم يترددن فى اللجوء إلى الثورة. وينطبق المعيار نفسه على الأمريكيين الأصليين (الهنود الحمر)، فقد ساد الاعتقاد بأنهم اختفوا إيذانًا باندثارهم، لكنهم ظهروا مرة أخرى من جديد متحدين لكل شيء. وتكرر السيناريو نفسه بالنسبة للشباب،فعلى الرغم من الوعود بفرص عمل، تم التخلى عنهم، إذ إن الهوة بين الأقوال الرسمية والأعمال الفعلية واسعة وعميقة إلى حد مخيف. أما الطبقة العاملة التى اعتقدت السلطات أنها نجحت فى تهدئتها بقوانين العمل الجديدة وتنظيم القوانين القديمة، والتحكم فيها من خلال اتحادات العمال، فقد قامت بالإضرابات من جديد. بل إن موظفى الحكومة الذين أخذوا على أنفسهم عهدًا بعدم إفشاء الأسرار، بدأوا فى إفشائها كنوع من رد الظلم الواقع على عاتقهم، وحتى رجال الكنيسة المسالمين للغاية شرعوا فى التحول من الولاء والطاعة إلى التظاهر والاحتجاج. ويبتكر هاورد زن معادلة تاريخية علمية تقنن العلاقة بين الثورات والسلطات فيما يشبه الميزان الحساس، الذى لا يلجأ إلى المبالغة فى تقدير قوة طرف من الطرفين على حساب الآخر فيقول:

«نحن نسترجع هذه الأحداث لنذكر بما تريد الدولة أن تمحوه من الذاكرة، ونقصد به الطاقة الهائلة المكبوتة داخل المعدمين الذين يستطيعون الاعتراض على الأوضاع السيئة ويطالبون بالتغيير. ويهدف الكشف عن هذا التاريخ إلى إظهار الحافز الداخلى الكامن فى كل البشر، والذين يرغبون من خلاله إثبات آدميتهم. وهذا ما يعنى أيضًا أنه فى أشد أوقات التشاؤم، هناك دائمًا سبيل للمفاجآت. ولكن تقدير الوعى الجماهيرى بأكثر مما يستحق، والمبالغة فى إظهار الثورات ونجاحاتها يمكن أن يكون مضللاً. فإن الحقيقة الثابتة فى العالم كله وليس فى الولايات المتحدة فحسب، هو أن زمام الأمور مازال فى أيدى المسئولين الكبار، وأن الحركات الشعبية على الرغم من قدرتها على الظهور مرات لانهائية، فإنها إما أن تُهزم أو تمتص أوتنحرف عن مسارها كما حدث مع الحركات الاشتراكية التى خانت الاشتراكية، أو الحركات الوطنية التى

انقلبت إلى ديكتاتوريات جديدة. لكن المؤكد أن جميع المؤرخين قاموا بالتقليل من شأن الثورات وبتضخيم أدوار رجال الدولة، وبالتالى توليد الإحساس بالعجز بين المواطنين. وإذا نظرنا بتمعن إلى حركات المقاومة أو الثورات، فسنجد أن الضمير الوطنى أو الإحساس بالظلم يختلف بين هؤلاء الناس، ويتم أيضًا التعبير عنه بطرق مختلفة. ففى ظل نظام يقوم على التهديد والقبضة القوية، نجد أن الناس لا يظهرون كل ما يعرفون وما يشعرون به، إلا إذا استطاعوا بحاستهم العملية أن يظهروها دون خوف من القضاء عليهم».

وتتجلى أهمية الفكر الثورى والشعبى الذى يعبرعنه هاورد زن، فى أنه يقدم منظورًا جديدًا لتاريخ حركات المقاومة الشعبية، وتعريفات جديدة لمفهوم القوة دون أن يدعى أنه أتى بنظرية جديدة. فالمفاهيم التقليدية الشائعة ترى أن من يملك القوة هو صاحب القوة العسكرية والثروة والتحكم فى الأيديولوجيا والتأثير على الثقافة وغسل المخ. وبهذه المعايير لا تستطيع معظم الثورات الشهيرة أن تستمر لأنها لا تملك كل هذه المقومات مجتمعة. ويبرز الجانب الواقعى فى فكر زن الذى يتوغل فى آليات العلاقة بين الدولة وقطاعات الشعب وطوائفه، التى يمكن استمالتها بشتى الوسائل والإغراءات التى تملكها وتستطيع أن توظفها باقتدار. فقد أثبتت حركات المقاومة عبر التاريخ أن أى انتصار غير متوقع لأية حركة مقاومة، وخاصة إذا كان مؤقتًا، لا يملك القدرة على الاستمرار. ففى إطار مجتمع متقدم، لا تستطيع الدولة أن تستمر دون ولاء الملايين وطاعتهم الذين تقدم لهم بعض المكافآت الصغيرة من حين لآخر للمحافظة على استمرار النظام وترسيخه، مثل فئات رجال الشرطة والقوات المسلحة والفنيين وعمال الإنتاج والمحامين والأطباء وعمال النقل وعمال النظافة ورجال الإطفاء، خاصة الذين ينتمون منهم إلى نقابات مهنية ذات ثقل: أى فئات الموظفين والمهنيين الذين يعدون إلى حد ما مميزين ولذلك تحرص الدولة على أن تؤثر فيهم بطريقة مباشرة ليبقوا على ولائهم لها. ومن هذا المنطلق، يطلق زن عليهم مصطلح «حرس النظام» لأنهم يحرسون الحاجز أو الجدار العازل بين الطبقة الفقيرة والطبقة الموسرة. ولو امتنع هؤلاء الناس عن ولائهم وطاعتهم للدولة، فإن ذلك سيؤدى إلى سقوطها وانجرافها فى وجه طوفان الفقراء المتدفق عبر الحاجز المنهار.

ويواصل زن التوغل فى تحليل نفسيات هذه الفئات التى يمكن أن تتخلى عن القيام بدور حرس النظام عندما تبرز على السطح حقائق جديدة تؤدى إلى مثل هذا الانقلاب، وهو احتمال متوقع إلى حد كبير. وخاصة الحقائق التى تتمثل فى ظهور تكنولوجيا جديدة أو ظروف اقتصادية مختلفة وغير مواتية أو قيام حرب... إلخ؛ ذلك

أن أسلحة الدمار الشامل لم تعد تفرق بين الطبقات أو الفئات الاجتماعية، كما أن الأزمات المالية المستحكمة (مثل أزمة سبتمبر ٢٠٠٨) يمكن أن تضرب الطبقات العليا والوسطى فى مقتل فى حين لا تتأثر الطبقات المعدمة كثيرًا لأنها ليس لديها ما تفقده. كذلك، فإن التقلبات المناخية والإيكولوجية التى تضاعفت فى أحجامها وخطورتها ونتائجها المدمرة المأسوية لا تعرف الحواجز الاقتصادية أو الفوارق الاجتماعية. ومع انتشار الأوبئة والأمراض الخطيرة أو المميتة، لم يعد فى إمكان الموسرين وملاك المنازل ودافعى الضرائب وأصحاب الخبرات الرفيعة والنادرة أن يظلوا فى معزل عن المخاطر الصحية والنفسية والبدنية التى يتعرض لها الفقراء والمعدمون والمتشردون والمجرمون والسود والأعداء سواء فى داخل البلاد أوخارجها. وجاءت العولمة الاقتصادية وحركات اللاجئين والهجرة غير الشرعية؛ لتجعل من الصعب على الناس فى المجتمعات الصناعية المتقدمة أن يبقوا فى منأى عن الظروف القاسية من فقر ومرض وجريمة يتعرض لها سكان الدول الفقيرة فى العالم. وفى هذا يقدم هاورد زن صورة زاخرة بالتفاصيل المأساوية لعالم اليوم مع احتفاظه بالريادة للولايات المتحدة عندما يقول:

«أصبحنا جميعًا رهائن للظروف الجديدة من تكنولوجيا، واقتصاديات متقلبة، وحروب غير مسيطرة عليها، وتسمم فى الماء والهواء على مستوى الكرة الأرضية. كما أن الأسلحة النووية والإشعاعات غير المرئية والفوضى الاقتصادية لا تفرق بين مساجين وحراس، والمسئولون لن يتحروا الدقة فى التمييز بين هؤلاء وهؤلاء. ومن المواقف التى لا تنسى موقف الحكومة الأمريكية، عندما علمت أن هناك مساجين أمريكيين فى نجازاكى، وقد اتخذت قرارها بإلقاء القنبلة النووية بقولها: «إن الأهداف قد تم تحديدها من قبل ولن يتم تغييرها».

«وهذا يثير الشعور بعدم الراحة وعدم الأمان عند حرس النظام، فنحن نعلم أن الفقراء لا يشتركون فى التصويت فى الانتخابات، وأنهم منعزلون عن النظام السياسى بسبب شعورهم بعدم الاهتمام به، ويقينهم بأنهم لن يستطيعوا أن يغيروا فيه شيئًا. هذه العزلة بدأت فى الانتشار بين الطبقات الأعلى من الفقيرة، أى بين العمال البيض ممن يعدون لا فقراء ولا أغنياء، ولكنهم يشعرون بالغضب الصادر عن عدم الإحساس بالأمان الاقتصادى ويشعرون بعدم الرضا عن وظائفهم، ويجتاحهم القلق من جيرانهم والعداء للحكومة. ويحكم تصرفاتهم ومشاعرهم بعض العناصر المستمدة من الحرب ضد العنصرية وممتزجة ببعض العناصر من الحساسية الطبقية والشعور

بالاحتقار للطبقة الدنيا،وعدم الثقة فى الطبقة العليا، مما يجعل من السهل السيطرة عليهم من أى اتجاه يمينى أويسارى.

«وفى العشرينيات كان هناك شقاق مماثل بين فئات الطبقة المتوسطة، وكان له اتجاهات عديدة لأن جماعة كوكلوكس كلان العنصرية استقطبت ملايين الأعضاء فى ذلك الوقت. وفى الثلاثينيات عمل الجناح اليسارى على تحريك هؤلاء الناس، وهذه المشاعر نحو الانضمام إلى نقابات تجارية ونقابات للفلاحين وحركات اشتراكية؛ مما عكس احتمالات السنوات التالية الطافحة بمشاعر هذه الطبقة المتوسطة غير الراضية. وكان عدم الشعور بالرضا حقيقة مؤكدة، برزت فى استطلاعات الرأى فى أوائل السبعينيات، التى أظهرت أنه من ٧٠٪إلى ٨٠٪ من الأمريكيين لا يثقون فى الحكومة أو الجيش أو المشروعات الاستثمارية. وهذا يعنى أن عدم الثقة تعدى حدود السود والفقراء والثوريين، وأنه انتشر بين العمال المدربين وأصحاب الياقات البيضاء وأصحاب المهارات العالية. وتعد هذه هى المرة الأولى فى تاريخ البلاد التى يحدث فيها إجماع بين الطبقة الفقيرة والطبقة المتوسطة، أى بين المساجين والحرس، بوصف الطرفين مضللين من قبل النظام».

ويستعرض زن مظاهر الضياع التى اجتاحت الشعب الأمريكى مثل ازدياد معدل إدمان الكحوليات ومعدلات الطلاق التى ارتفعت إلى خمسين فى المائة، وكذلك معدلات العنف والجريمة والانهيار العصبى والأمراض النفسية والعقلية لدرجة أن الولايات المتحدة أصبحت تعانى من أكبر نسبة مجانين فى العالم (أكثر من ثمانية ملايين). وفى مواجهة المشكلات الخطيرة، الصحية والاجتماعية، التى أزمنت وبلغ بعضها درجة الوباء، وقع ملايين الأمريكيين تحت وطأة الإحساس المرير باليأس والعجز والوحدة والإحباط، الذى أصابهم بالعزلة عن بقية الناس وعن العالم وعن عملهم وعن أنفسهم، فراحوا يعتنقون ديانات جديدة، وينضمون إلى جماعات تتبنى فكرة أمريكية قديمة وتقليدية ترفع شعار «الحل يأتى من الداخل»، والتى كانت سائدة حتى دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الأولى. ويصف زن الولايات المتحدة وكأنها أمة تواجه نقطة حرجة فى منتصف عمرها، وتتطلب مراجعة النفس من خلال الشك والنقد الذاتى.

وهذه المرحلة الحرجة التى تمر بها الولايات المتحدة، أصابت الطبقة المتوسطة بالرعب من المستقبل لأنها فقدت كل إحساس بالأمن الاقتصادى؛ فالنظام السياسى والاقتصادى فقد القدرة على التعقل والاتزان تحت وطأة السعار لتحقيق الربح فقط، بعد أن أصبحت العبرة متمثلة فى تحقيق أكبر قدر ممكن منه بكل الوسائل؛ فهذا النظام

المصاب بحمى الثروة، يقوم ببناء ناطحات سحاب لشركات التأمين فى الوقت الذى تحتضر فيه المدن وتنهار موافقها وبنيتها الأساسية، وينفق الملايين على أسلحة الدمار الشامل ولا شىء لبناء ملاعب للأطفال، ويدفع مرتبات باهظة لبعض الرجال الذين يقومون بأشياء خطيرة أو غير نافعة، فى الوقت الذى يعطى فيه القليل للفنانين والكتاب الجادين الحريصين على الارتقاء بالعقل الجمعى للجماهير.

ويضع زن يده باقتدار على محنة الطبقة المتوسطة، التى عاشت على أمل «الحلم الأمريكى»، ظنًّا منها أنها أبعد ما تكون عن بؤس الطبقة الفقيرة التى لم تقدم الرأسمالية شيئًا لها، ولو على سبيل المسكنات والمهدئات، فإذ بمظاهر الفشل الرأسمالى تنتشر كالوباء بين أفراد وأسر الطبقة المتوسطة التى كانت تظن أن تهديد البطالة كان مقصورًا على الفقراء، فوجدوه يمتد ليصل إلى أفراد الطبقة المتوسطة من أصحاب الياقات البيضاء؛ فلم يعد الحصول على شهادة جامعية، يمثل ضمانًا للحصول على وظيفة. ومشكلة النظام تبرز عندما لا يوفر فرص عمل لأبناء الطبقة المتوسطة، أشد صعوبة وتعقيدًا، وتضعه فى مأزق حقيقى؛ لأنها لن تكون تحت السيطرة،مما لو كانت مع شباب العائلات الفقيرة؛ لأن المشكلة فى هذه الحالة تكون السيطرة لأن شبح السجون فى الخلفية دائمًا. أما فى حالة أبناء الطبقة المتوسطة فسوف يواجهون مشكلات وصعوبات وعقبات، تذكرهم بآلام أبناء الطبقة الفقيرة الذين اعتادوا قلة الأموال والتعرض للضغوط، بعد أن دخلت الطبقة المتوسطة فى دائرة البؤس مع ارتفاع الأسعار والضرائب، وغير ذلك من الضغوط والمتاعب التى لاتعرفها الطبقة العليا؛ لأن كل قوانين الضرائب والتعاملات المالية تسن لصالحها. ويزخر كتاب هاورد زن «تاريخ شعب الولايات المتحدة» بصور قلمية، تشكل بانوراما كابوسية للحياة الأمريكية. يقول مثلاً:

«فى السبعينيات والثمانينيات وأوائل التسعينيات، كان هناك خوف كبير ومزعج بسبب ازدياد معدلات الجريمة، وستعرف سبب هذا الازدياد لو تجولت فى مدينة كبيرة حيث تجد التضاد بين الثراء والفقر، وترى ثقافة الامتلاك والدعاية المسعورة لها. فهناك منافسة اقتصادية بين العنف والسرقة المشروعين من قبل المؤسسات والدولة، وبين السرقة غير المشروعة من قبل الفقراء! وأغلب الجرائم جرائم سرقة، وأغلب المساجين من السود والفقراء الذين لم يناولوا قسطًا كبيرًا من التعليم، ونصفهم كان عاطلاً عن العمل فى الشهر الذى سبق القبض عليه، وأشهر الجرائم هى جرائم الشباب الفقير الذى يمثل إرهابًا داخل المدن الكبيرة؛ حيث يقوم الشباب المدمن اليائس بعمليات الهجوم والسرقة للطبقات المتوسطة وأحيانًا بسرقة جيرانهم الفقراء،

ففى مجتمع يتباين فيه نصيب كل فرد من الثروة والتعليم، يصبح من الطبيعى توالد مشاعر الغضب والحقد الطبقى. والتساؤل الملح الآن هو: هل بناء سجون جديدة، كما خدعت الدولة أبناء الطبقة المتوسطة وجعلتهم يقتنعون بذلك، مازال احل الوحيد للقضاء على الجرائم بعد ازدياد معدلاتها؟ فالنتيجة النهائية لبناء السجون هى سلسلة جديدة من الجرائم والعقوبات. والحل الوحيد للوصول إلى الأمان والقضاء على الجرائم هو توفير فرص عمل للجميع. وهذا يتطلب تعديل الأولويات الوطنية وتغييرًا شاملاً للنظام».

ومع عدم قدرة المؤسسة الحاكمة على حل المشكلات الاقتصادية المزمنة والمتفاقمة فى الداخل أو إيجاد صمام أمان لها فى الخارج للتخفيف من حدة الاستياء الداخلى، قد يؤدى بالشعب الأمريكى إلى المطالبة بقوانين إصلاحية أو بإعادة تنظيم أوراق اللعبة السياسية أو إبرام صفقة جديدة فحسب، بل بتغيير جذرى أيضًا. ومثل هذا التغيير يتطلب نزع السلطات من أيدى من كان لهم الدور الكبير فى الوضع الحالى مثل الشركات العملاقة والمؤسسة العسكرية والمتعاونين السياسيين. ورغم صعوبة هذا الطموح السياسى الثورى الذى يعلنه هاورد زن، فإنه لا يتردد فى تقديمه إلى الشعب الأمريكى لعله يدرك أنه لن يخرج من النفق المظلم الذى صنعه له المجمع العسكرى الصناعى، إلا بالسير على هذا النهج الثورى حتى لا تتفاقم أوضاعه السيئة. ولذلك يطالب زن بتوحيد جهود الجماعات المحلية على مستوى البلاد كلها؛ لإعادة بناء اقتصاد يقوم على الكفاءة والعدالة بحيث يتم الإنتاج بطريقة تعاونية لمعظم الاحتياجات الضرورية للشعب. ولابد من البدء بالبيئة المحيطة بالسكان وتتمثل فى الجيران وأماكن العمل، كما يتحتم توفير عمل ما لكل شخص، وإشراك بعض المجموعات التى تم استبعادها من قبل مثل الأطفال وكبار السن والمعوقين. فقد حان الوقت لاستغلال الطاقة الهائلة التى يمتلكها المجتمع بطريقة فعالة، وتوظيف المهارات والمواهب المهملة. ويمكن الاستفادة بطاقات مواطنين كثيرين فى بعض الأعمال الروتينية فى بعض ساعات اليوم ثم ترك بقية اليوم للإبداع والترفيه، بحيث يمكن إنتاج ما يكفى للتوزيع بالتساوى، مع إتاحة فرص الضروريات الحياتية لكل شخص مثل المأكل والمسكن والرعاية الصحية والتعليم والمواصلات وغيرها.

وهذه مهمة قومية ضرورية وحضارية، قد تكون صعبة ومعقدة ولكنها ليست مستحيلة إذا حسنت النوايا وارتفع الوعى القومى بأنها كلما ازداد خير البلاد فلابد أنه يعم الجميع وتختفى مشكلات، بدت عويصة، من تلقاء نفسها. ربما تكمن المشكلة المحورية فى تحقيق هذا الإنجاز التاريخى فى التقاليد التى ترسخت من قبل، وفى

مقدمتها البيروقراطية المركزية واللجوء إلى استخدام أساليب العقاب والسجن، وغيرها من الأساليب التى يجب أن يحل محلها استخدام حوافز التعاون المشترك، التى تنشأ بناء على رغبات الأفراد الداخلية. وهذه الطريقة ليست جديدة على الدولة الأمريكية، فقد كانت تستخدمها فى الماضى فى زمن الحرب، كما كانت الطريقة المفضلة عند الحركات الاجتماعية. ومن خلالها تصدر القرارات عن مجموعات عمل صغيرة فى إطار الاتصال والتعاون المشترك فيما بينها؛ أى بطريقة اشتراكية تتجنب التراتب الطبقى للرأسمالية والديكتاتوريات الفظة التى كانت تحمل فى الماضى صفة «اشتراكية».

ويغمر التفاؤل هاورد زن عندما يرسم ملامح مشرقة لصورة المستقبل برغم كل العقبات والعراقيل، التى يمكن أن تعوق تحقيق الأمل أو «الحلم الأمريكى» الحقيقى، رغم أنه لم يستخدم هذا المصطلح أو التعبير الذى استعمل واستهلك كثيرًا لدرجة أنه فقد معناه ودلالته؛ فهو يؤمن بأنه مع مرور الوقت، يصير ممكنًا أن يقوم الأفراد أو المواطنون المنتمون إلى فئات متحابة فى إطار المجتمع الواحد، بإيجاد ثقافة جديدة وإيجابية ومتنوعة وسليمة ومثمرة، تمكنهم من ممارسة كل أنواع التعبيرات الفردية والجماعية، بحيث يتباهى كل فريق من الرجال والنساء، البيض والسود وكبار السن والشباب والأطفال، بإمكاناته المختلفة عن الفئات الأخرى بشكل إيجابى وليس بغرض الهيمنة عليها؛ مما يمهد الطريق لظهور قيم جديدة للتعاون والحرية يمكن أن تتبلور فى العلاقات الجديدة بين الناس بصفة عامة وفى تربية الأطفال بصفة خاصة.

ولعل تفاؤل هاورد زن يرجع إلى أن ما يطالب به ليس جديدًا تمامًا على نظم الولايات المتحدة، الذى شهد إرهاصات سابقة توحى بإمكان أن تتحول إلى حقائق مادية على أرض الواقع الأمريكى؛ ففى ظل هذا النظام يمكن الاستفادة من طاقات الحركات السابقة التى قام بها السود والعمال والأمريكيون الأصليون (الهنود الحمر) والشباب؛ بالإضافة إلى طاقة جديدة لطبقة وسطى غاضبة؛ فالأفراد فى حاجة إلى أن يبدأوا بالسيطرة والتحكم فى بيئتهم التى يعيشون فيها، مثل بيئة العمل والأسرة والمدرسة والمجتمع، من خلال سلسلة من النضال ضد السلطة الغائبة؛ بحيث يسيطرون على هذه المواقع بحكم أنهم يعيشون ويعملون فيها.

ويضع زن ما يشبه المانيفستو الذى يتضمن التكتيكات النضالية والخطوات الثورية الكفيلة بدفع المسيرة إلى أهدافها الشعبية، فيوصى بأن يتضمن هذا النضال التكتيكات التى استخدمتها من قبل الحركات الشعبية والاحتجاجات والمسيرات والمقاطعات والإضرابات والعصيان المدنى؛ من أجل إعادة توزيع الثروة القومية بدلاً من تركيزها فى أيدى الطبقة المترفة، التى لا تتعدى ٥٪ من الشعب الأمريكى، وكذلك

إعادة هيكلة المؤسسات وإصلاح العلاقات بين الناس، من خلال مختلف أنواع الفنون والإعلام والأعمال الأدبية والدرامية والموسيقية والسينمائية والتليفزيونية، وأيضًا مختلف الأنشطة الاجتماعية والثقافية والحضارية بحيث تصيرجزءًا عضويًا من ممارسات الحياة اليومية؛ مما يؤدى إلى إيجاد نوع جديد من الثقافة ينهض على المشاركة الحضارية والاحترام المتبادل بين البشر، الذين يجب أن يتعلموا أن الإنسان قيمة فى حد ذاته وليس فيما يملكه. مثل هذه الأخلاقيات لابد أن تكفل الراحة النفسية والسعادة للناس.

وتفاؤل هاورد زن ينهض على منهج واقعى وعقلانى وعلمى، يضع كل الاعتبارات فى الحسبان. فسوف تكون هناك عقبات وهزائم ونكسات، ولكن عندما تكون هذه الحركة منتشرة فى فئات بل ألوف المواقع فى البلاد، سيكون من الصعب إخمادها؛ إذ إن حرس النظام أنفسهم الذين تعتمد عليهم الدولة لحمايتها بحكم انتمائهم للطبقة الوسطى التى تعتبر السد المنيع ضد طوفان الفقراء، سيكونون فى صفوف هذه الحركة. إنه نوع جديد من الثورة بل والوحيد فى نظر زن، الذى يمكن أن يحدث فى دولة مثل الولايات المتحدة.. لكنها ثورة تتطلب الكثير من التضحية والطاقة والإلتزام والصبر،ولأنها عملية مستمرة، فلابد أن تبدأ دون أى تأخير لأن عنصر الزمن يمكن أن يكون الفيصل بين النجاح والفشل. فإذا توافرت لها كل هذه العناصر الإيجابية، فلابد أن تحقق فى النهاية الإنجاز المنشود، الذى يجده الجميع من خلال الروابط الحميمة والبشائر الطيبة التى تبرز بين الجماعات التى تنشد هدفًا مشتركًا. يقول زن:

«قد يأخذنا هذا التوجه بعيدًا عن التاريخ الفعلى للولايات المتحدة إلى عالم الخيال، لكن الأمر ليس هكذا تمامًا. فهناك على الأقل لمحات من الماضى كانت تبشر باحتمالات حدوث ما كنا نتحدث عنه، فمثلاً فى الستينيات والسبعينيات وللمرة الأولى فشلت المؤسسة الحاكمة فى إيجاد وحدة وطنية وشعور قومى فى أثناء الحرب. وشهدت كذلك فيضان التغيرات الثقافية، التى لم تشهدها الدولة من قبل، فى الجنس والعلاقات الشخصية والأسرة، وهى أمور يصعب على مراكز السلطة العادية التحكم فيها. كما شهدت هذه الفترة تآكلاً عامًا فى الثقة الممنوحة لكثير من عناصر النظام الاقتصادى والسياسى. وكقاعدة عامة عبر التاريخ، كان الناس فى أى وقت لا يعدمون الوسيلة لمساعدة بعضهم البعض، حتى فى وسط ثقافة تقوم على المنافسة والعنف، حتى لفترات قصيرة، ولكنهم كانوا يجدون متعة فى العمل والرفقة والنضال.

«وتحتاج هذه الصورة المنشودة كثيرًا من الكد والكفاح، ولكنها تظل صورة ملهمة بفرصة لهذه الحركة فى أن تنجح فيما لم يستطع النظام الحاكم فعله وهو إجراء تغييرات كبيرة بقليل من العنف، وذلك ممكن لأنه كلما رأى الـ ٩٩٪ من الشعب أنهم مشتركون فى الأهداف، أدرك سجناء النظام وحرسه أن لهم الاحتياجات نفسها. وبذلك تزداد عزلة المؤسسة عن الشعب وتصبح غير فعالة، إذ ستصير أسلحة النخبة، التى تتمثل فى الثروة والتحكم فى المعلومات، عديمة الجدوى فى مواجهة شعب صامد تسلح بالإرادة وعرف كيف يستخدمها. عندئذ سيرفض خدام النظام أن يعملوا من أجل استمرار النظام القديم المميت، وسيشرعون فى الاستفادة من الامتيازات، التى منحها لهم النظام القديم لشراء ولائهم؛ من أجل إيجاد نظام جديد. ولن يتوقف سجناء النظام عن الاحتجاجات والتمرد كما حدث فى الماضى، وبطرق لا يمكن التنبؤ بها وفى أوقات يصعب توقعها. وهذه الحقبة تتميز بحقيقة جديدة، وهى أن هناك فرصة أن ينضم حرس النظام إلى سجنائه. إننا – قراءً وكتابًا – نُعَد من حرس النظام، معظم الوقت، فلو فهمنا ذلك وتصرفنا بناء عليه، لن تكون الحياة أفضل لنا فحسب، ولكن ربما ينعم أحفادنا وأحفاد أحفادنا بحياة مختلفة ورائعة».

كان هاورد زن بالمرصاد لكل محاولات تزييف الوعى والاستهانة بالعقل الأمريكى، منذ أن بدأ تدريس التاريخ وكتابته، فلم تكن لديه أية أوهام عن «الموضوعية» إذا كانت تعنى تجنب إبداء وجهة النظر. كان يدرك أن المؤرخ أو الكاتب بصفة عامة، عليه أن يختار من بين عدد لامحدود من الحقائق التى يجب عليه أن يقدمها أو يحذفها أو يهملها، وبالتالى فإن قراره بإبراز بعض الحقائق دون البعض الآخر، يعكس سواء على مستوى الوعى أو اللاوعى، توجهات المؤرخ وميوله ومصالحه. ولذلك يسخر زن من النغمة التى تتردد دائمًا عن حاجة الطلاب إلى أن يتعلموا الحقائق. فمثلاً يغرم معظم المرشحين للرئاسة الأمريكية بالتلاعب بالحقائق أو التغنى بها حسب الظروف، ولكنهم يرددون جملة متكررة ومملة فى معظم حملاتهم الانتخابية قائلين: «إن أطفالنا لا يتعلمون الحقائق». ويستشهد زن بشخصية المتحذلق جراد جرايند فى رواية تشارلز ديكنز المعروفة «أوقات عصيبة» وهو يلح على مدرس شاب مذكرًا إياه: «لا تعلم التلاميذ شيئًا سوى الحقائق! الحقائق! الحقائق!».

هنا تتبلور النظرة النسبية التى حكمت كل دراسات زن وكتبه ومحاضراته؛ فليس عنده شىء اسمه الحقيقة الخالصة البريئة النقية، التى لا تخضع لأى تأويل؛ فخلف كل حقيقة يقدمها مؤرخ أو كاتب أو مدرس إلى جمهوره من القراء أو المستمعين أو الطلاب، يكمن حكم من الأحكام. ولا يعنى مثل هذا الحكم سوى أن هذه الحقيقة

مهمة وأن الحقائق الأخرى – المحذوفة أو المهملة – ليست مهمة، ففى الحياة البشرية ليست هناك حقائق مطلقة يتفق الجميع عليها، بل هى كلها نسبية ويختلف تقييمها باختلاف الزمان أو المكان أو الإنسان الذى يتعامل معها؛ فالحقيقة هى كذلك طبقًا للناظر إليها، وهى لا تتواجد إلا داخل المتلقى، إذ ليس لها وجود مستقل فى حد ذاتها. وهذا المبدأ ينطبق على كل أساليب التعامل مع المواقف والأفكار والأحداث والشخصيات، ويخضع له كل المؤرخين والكتاب والدارسين سواء شاءوا أم أبوا، سواء على مستوى الوعى أو اللاوعى، سواء أبرزوها أو حذفوها أو أهملوها أو تجاهلوها.

بنى زن انجازه الإكاديمى والفكرى والتاريخى على الموضوعات التى وجدها فى غاية الأهمية بالنسبة له، ولكنه لم يجدها فى الدراسات أو السجلات التاريخية التقليدية التى تهيمن على الثقافة الأمريكية. ولم تقتصر عواقب الحذف أو الإهمال أو التجاهل لمثل هذه الموضوعات على تقديم وجهة نظر مشوهة ومبتورة عن الماضى، بل إن هذه العواقب ضللت معظم الأمريكيين تجاه الواقع الراهن؛ فقد كان هدف معظم المؤرخين والمفسرين هو التركيز على الجانب المضىء من القمر الأمريكى حتى يزداد انبهار الأمريكيين وغير الأمريكيين به، ثم جاء هاورد زن ليقدم الجانب المظلم من القمر الأمريكى كى يدرك الأمريكيون إلى أى مدى تم التعتيم على عقلهم وفكرهم؛ حتى تقتصر رؤيتهم على ما يراه المؤرخون الرسميون أو الكتاب المحترفون المستفيدون من معطيات الأوضاع السائدة، التى ازداد رسوخها مع أبواق الإعلام، التى غطت العالم كله بالصوت والصورة والكلمة المقروءة.

وكان زن من الجرأة الثورية بحيث اقتحم عرين الأسد دون خوف أو تردد؛ ليحطم الأصنام التى انحنى لها الأمريكيون احترامًا واجلالاً منذ تأسيس بلدهم. فى مقدمة هذه الأصنام، كان «الآباء المؤسسون» كرسوا كل جهودهم الفكرية والقانونية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية لحماية طبقتهم، وتجاهل ما عداها من أية طبقات أو فئات أو قطاعات أخرى. كانت العنصرية تقطر من كل كلمة كتبوها فى وثيقتهم التى عرفت بعد ذلك باسم «الدستور»، ولكنهم أخفوا هذه العنصرية بتوجيه وثيقتهم، إلى الشعب الأمريكى برمته. وكانوا من الوعى الاجتماعى والدهاء السياسى والحنكة الاقتصادية ما جعلهم يبدأون نص الدستور الأمريكى بالتعبير عن قضية الطبقة بكلمة «نحن»، دون أى توصيف أو تخصيص لهذا الضمير، بحيث يمكن أن تعنى ضمير المتكلم أى الذين كتبوا تلك الوثيقة، وتعنى بالتالى الطبقة الاقطاعية والرأسمالية والمترفة التى ينتمون إليها، كما يمكن أن تعنى ضمير المتكلم الجمعى

للأمريكيين جميعا بحكم أنهم ليسوا مجرد خمسة وخمسين من الذكور البيض الأنجلو ساكسون، بل ممثلون للأمريكيين كافة، فى حين أنهم أصحاب الامتيازات الذين تطلبت مصلحتهم الطبقية إقامة حكومة مركزية، تستطيع أن تدفع قيمة السندات كاملة لمالكيها، وتفرض ضريبة لمصلحة أصحاب المصانع، وتساعد مالكى العبيد فى القبض على الفارين منهم، وتحمى المستوطنين عندما يستولون على أراضى الهنود. وهكذا استمر استخدام الحكومة لتحقيق أهداف طبقية؛ أى لخدمة الأثرياء وأصحاب النفوذ، على مدار التاريخ الأمريكى وحتى الآن. ويعرى زن الجانب الخفى لهذه اللعبة الراسخة والمستمرة بقوله:

«يتخفى كل ذلك وراء لغة توحى بأننا جميعًا، أغنياء وفقراء وطبقة وسطى، تجمعنا مصلحة مشتركة. ولذلك توصف حالة الأمة عن طريق استخدام مفردات جامعة، كما يحدث عندما يعلن الرئيس الأمريكى فى سعادة أن «اقتصادنا بخير». إنه بذلك لا يعترف بأن الاقتصاد قد لا يكون «بخير» بالنسبة لأربعين أوخمسين مليونًا من الأمريكيين الذين يكافحون فى سبيل البقاء، فى حين يكون الاقتصاد «بخير» إلى حد معقول بالنسبة لكثيرين من أصحاب الطبقة الوسطى، ويكون «بخير» إلى أقصى الحدود لأغنى الأغنياء، أى نسبة ١٪ من الأمة، والتى يملك أصحابها ٤٠٪ من ثروة البلاد.

«وبالطريقة نفسها، تطلق مسميات على فترات فى تاريخنا تعكس رفاهية طبقة وتتجاهل بقية الطبقات. كانت عبارة «التسعينيات المزدهرة» مفيدة فى التعتيم على أن الأمة كانت تعانى من أزمة اقتصادية لمدة طويلة من هذا العقد، حين كان واحد من بين كل خمسة أمريكيين فى سوق العمل عاطلاً، وأن موجة من الإضرابات عصفت بالبلاد.. عندما كنت أتصفح ملفات فيوريللو لاجواردیا، عضوالكونجرس فى العشرينيات عن هارلم، قرأت خطابات ربات بيوت يائسات، أزواجهن عاطلون وأطفالهن جوعى ولا يستطعن دفع إيجار السكن. كان كل هذا فى تلك الفترة، التى يطلق عليها «عصر موسيقى الجاز» والعشرينيات المزدهرة».

ويحلل زن العلاقة بين الماضى والحاضر كمؤرخ، فيرفض استخراج أية حقيقة مطلقة من الماضى كأداة لتفسير الحاضر؛ لأن مثل هذه الحقيقة غيرموجودة على الإطلاق، وإن كان يرى أنه من المحتمل أن تساعد دروس الماضى على امتلاك نظرة أعمق إلى التصريحات السطحية لرجال السياسة، ومن يطلق عليهم لقب «الخبراء» الذين تردد وسائل الإعلام أقوالهم. وبالتالى، فإن معرفة الاضطراب الذى يغلى تحت السطح البراق لعبارة مثل «الرخاء الاقتصادى» يمكن أن يساعد فى البحث الآن عن

دليل، يثبت أنه ليست الطبقات كلها يمكن أن تستفيد من اقتصاد يفترض فيه أنه بخير. كذلك، فإن الخلط بين المصلحة الطبقية والمصلحة القومية، قد شوه مفهوم المصلحة القومية، التى يفترض أن تكون لجميع المواطنين بلا استثناء، ويستعرض زن المآسى التى ترتبت على هذا الخلط فيقول:

«إن خبرتى الخاصة فى الحرب ثم دراستى لمختلف الحروب التى شاركت فيها الولايات المتحدة وتدخلاتها العسكرية الكثيرة فى الخارج، كل هذا جعلنى أتشكك عندما أسمع مسئولين سياسيين رفيعى المستوى، يثيرون مسألة «المصلحة القومية» أو «الأمن القومى» من أجل تبرير سياساتهم، وهى تبريرات كانت بمثابة قاعدة لانطلاق الرؤساء للشروع فى تنفيذ خططهم. من هذه القاعدة، بدأ ترومان «عملاً بوليسيًّا» فى كوريا أودى بحياة عدة ملايين من البشر، ومنها أيضًا شن كل من جونسون ونيكسون حربًا فى شبة جزيرة الهند الصينية (ڤيتنام وكمبوديا ولاوس) راح ضحيتها حوالى ثلاثة ملايين من البشر، ومنها غزا ريجان جرينادا وهاجم بوش (الأب) بنما ثم العراق، كما قصف كلينتون العراق أكثر من مرة.

«هل كانت هناك حقًا «مصلحة قومية»، عندما قرر عدد قليل من الناس الحرب التى أفنت أعدادًا كبيرة من الناس – هنا وهناك – نتيجة مثل هذا القرار؟ ألا يجدر بالمواطنين أن يتساءلوا أكثر من مرة: لمصلحة من نفعل ما نفعله؟ ثم سألت نفسى: ولماذا لا نحكى قصة الحروب، ليس من خلال الجنرالات والدبلوماسيين بل من وجهة نظر الجنود الذين شاركوا فيها، ومن جهة نظر الآباء والأمهات الذين تلقوا البرقيات المؤطرة باللون الأسود؟ إن ما أثار دهشتى عندما بدأت دراسة التاريخ، هو كيف طغى الحماس الوطنى الذى تغرسه الحكومات فى عقول الناس منذ الطفولة من خلال عهود الولاء والأغانى الوطنية والأعلام الخفاقة والخطابة، على نظم التعليم فى كل البلاد بما فيها الولايات المتحدة. وأتساءل كيف كانت ستبدو سياستنا الخارجية إذا ألغينا – على الأقل فى عقولنا – الحدود القومية للعالم ونظرنا إلى أطفال العالم أجمع بوصفهم أطفالنا، ما كان لنا، لو حدث ذلك، أن نسقط القنبلة النووية على هيروشيما أوالنابالم على ڤيتنام، أو نشن حروبًا فى أى مكان من العالم لأن الحروب، خاصة فى عصرنا، هى دائما حروب ضد الأطفال».

هذه النظرة الشاملة المتعاطفة مع آلام البشرية بصفة عامة، شكلت الهدف الاستراتيجى لكل كتابات ودراسات هاورد زن، والذى تمثل فى إيقاظ الوعى الناضج والإنسانى بالصراع الطبقى، والظلم العرقى، وعدم المساواة الجنسية، والغطرسة القومية فى الولايات المتحدة. فلم يزل هناك الكثير مما تود كتب التاريخ الرسمية أن

تحذفه أو تسكت عنه كمشكلة العرق أو العنصر، التى لم تجد حلاً حتى الآن. لم يطرأ فى بال زن، عندما توغل فى دراسة التاريخ الأمريكى، كيف كان تدريس التاريخ وكتابته شيئًا مراوغًا وملتويًا فى إصراره على حجب الضوء عن غير البيض. كان الهنود الحمر صفحة مأسوية ملطخة بدمائهم النازفة من طلقات الرصاص، التى أمطرهم بها البيض. ولكن من بقى منهم بعد حمامات الدم والإبادة المنتظمة التى أقامها لهم البيض، ذهبوا إلى زوايا النسيان ولم يعد لهم ذكر إلا فى الأفلام العنصرية الكريهة وكذلك كان السود تحت الضوء عندما كانوا عبيدًا، لكن بمجرد ترويضهم وإذلالهم بل وإبادة بعضهم أيضًا، دخلوا فى زوايا التهميش والإهمال رغم الاعتراف الرسمى بهم كمواطنين أحرار.

ورغم نجاح هاورد زن فى إثبات أن تاريخ الولايات المتحدة هوتاريخ الرجل الأبيض، فإن مصداقيته الفكرية كأحد رواد التيار الثورى فى السياسة الأمريكية، قد جعلته وهو يحاول أن يستنطق ما حذف وما أهمل من التاريخ الرسمى للبلاد، يعترف بأنه أهمل بعض الجماعات فى المجتمع الأمريكى، والتى عانت هى أيضًا من التهميش والإهمال على أيدى الكتبة التقليديين للتاريخ، ولذلك فهو يتقدم بالاعتذار بأن إقامته الطويلة فى الساحل الشرقى من الولايات المتحدة ربما كانت السبب فى إهماله لجماعات اللاتينو واللاتينا والشيكانو، الذين عاشوا فى كاليفورنيا والجنوب الغربى للبلاد، ولنضالهم فى سبيل الحصول على حقوقهم العادلة. ويختم هاورد زن كتابه «تاريخ شعب الولايات المتحدة» بقوله:

«وما تزال قضيتا الطبقة والعرق متضافرتين.. إنه سباق بأيدينا جميعًا أن نختار إما المشاركة فيه وإما الاكتفاء بالمشاهدة. ولكن علينا أن نعرف أن اختيارنا سوف يساعد فى تحديد النتائج».